المحاضرتان الرابعة + الخامسة: مصطلحا اللفظ والمعنى

تمهيد

شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد العرب كثيرا، فتناولوها بالدراسة، وذهبوا فيها مذاهب مختلفة، "وانقسم الناس إلى من يؤثر للفظ على المعنى فيجعله غايته، و من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ، وقبحه، وخشونته"[1].

وتحدثوا عن صلة اللفظ بالمعنى، وخفة اللفظ وتنافر الألفاظ واقتران الحروف فيها، وسخافة الألفاظ، وذكروا صفات اللفظ وعيوبه وصلته بالبيئة.

وتكلموا على ائتلاف اللفظ مع اللفظ وعلى ائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ والوزن، ووضعوا للألفاظ شروطا ينبغي التقيد بها ولخصها ابن سنان في ثمانية[2]:

-أن يكون تأليف اللفظ من حروف متباعة المخارج

-أنيكون لتأليف اللفظ في السمع حسن ومزية على غيره

-أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية

-أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية

-أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة

-أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره

-أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف

-أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عُبر بها فيه عن شئ لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك.

اللفظ والمعنى في النقد القديم

وأول من تحدث عن هذه القضية الأصمعي (مالك بن قُريب (210هـ) وبشر بن المعتمر، فقد سُئل الأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا"[3].

---

[1]- أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ص

[2]- المرجع نفسه، ص

[3]- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنّى ببغداد، 1963،

وتحدث بشر بن المعتمر (210هـ) في صحيفته عن علاقة اللفظ بالمعنى، مؤكدا ضرورة التناسب بين الحال والمقال، فقال: "وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"[1].

ثم بيّن المنازل الثلاث للمعاني: "فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"[2].

وتصدى الجاحظ (255هـ) لدرس شؤون البلاغة والبيان، فجمع فيه ملاحظات العرب البيانية، وبعض ملاحظات غيرهم فقال عن اللفظ: "وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا،وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام، يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقيّ. وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات..."[3]

ونسوق في هذا المجال قصة الشاعر علي بن الجهم مع الخليفة المتوكل:

يُقال إن علي بن الجهم عاش في شبابه في بيئة صحراوية قاسية، على الرغم من الشاعرية الفذة التي تتأجج في صدره، إلا أن البيئة تؤثر في الإنسان وتتكون في شخصيته آثارها، لذا قيل عن علي بن الجهم إن قساوة البادية أثرت فيه كثيرا، ولكم هذه القصة عن هذا الشاعر..وهي من كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار (ج2ن، ص3) لمحيي الدين بن عربي ننقلها لكم بتصرف عن كتاب: قصص العرب لمحمد أحمد جاد المولى وآخرون: "قدم علي بن الجهم على المتوكل- وكان بدويا جافيا- فأنشده قصيدة أثرت فيه البادية كثيرا،مع انه

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 1985،

[2]- نفسه، ن ص.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص

كان رشيق المعاني لطيف المقاصد إلا أن الحياة الجافة أثرت على ألفاظه، فذات مرة ضاقت به الحال فذهب إلى المتوكل على الله لينشده الشعر، فعندما دخل على المتوكل قال[1]:

أنت كالكلب في حِفاظِكَ للود وكالتيسِ في قراعِ الخطوبِ

أنت كالدلوِ لا عدمناك دولا من كبار الدلا كثير الذنوبِ*

فعرف المتوكل قوته، ورقة مقصده، وخشونة ألفاظه، وأنه ما رأى سوى ما شبه به لعد المخالطة وملازمة البادية، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان حسن، يتخلله نسيم لطيف يغذي الأرواح والجسر قريب منه، فيخرج إلى محلات بغداد، فيرى حركة الناس ومظاهر مدنيتهم ويرجع إلى بيته.

فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته، ثم استدعاه الخليفة بعد مدة لينشده؛ فحضر واشد قصيدة تعتبر أروع ما قاله، قوامها 56 بيتا كل بيت أروع من البيت الذي قبله، حتى قال عنها الشعراء، لو لم يكن لديه إلا هي تكفيه أن يكون أشعر الناس. نأخذ منها هذه الأبيات:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبنا الهوى من حيث ادري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمرِ

سلمن وأسلمن القلوب كأنما تشك بأطراف المثقفة السُّمرِ

وقلن لنا نحن الأهلة إنما تضيء لمن يسري بليل ولا تقري

فلا بذل إلا ما تزود ناظر ولا وصل إلا بالخيال الذي يسري

فقال المتوكل: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة.

ويعد الجاحظ من أنصار اللفظ، وهو يقول: "والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإن الشعر صناعة، وضرب من النسيج والتصوير"[2].

---

[1]– محمد أحمد جاد المولى وآخرون، قصص العرب، ج3، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه،، ط 4، 1382هـ– 1962،

*– الدلا: أصلها الدلاء وهي جمع دلو. كثير الذنوب: أي كثير السَيَلان

[2]– الجاحظ: الحيوان، ج3، ص131–132. نقلا عن: محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي

وقد اشتهر ابن قتيبة (322هـ) بتقسيمه الشهر إلى أربعة أضرب، زاوج فيها بين اللفظ والمعنى، فقال إن الشعر على أربعة أضرب:[1]

قال أبو محمد: تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب.

-ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل في بعض بني أمية:

أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

وكقول أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

- وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشُدّت على حُدْب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارجَ ومطالعَ ومقاطعَ وإن نظرت إلأى ما تحتها من المعنى وجدتهك ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيّ في الأبطح. وهذا الصنف من الشعر كثير.

-وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد ربيعة:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا و ُن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق.

- وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأة:

وفوها كأقاحي غداه دائم الهطل

كما شيب براحٍ با رد من عسل النحل

[1]- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص

وتحدث عن ذلك (ابن طباطبا العلوي (322هـ) في عيار الشعر فقال: "وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها، وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه..."[1].

وحدد قدامة بن جعفر (337هـ) المعاني في كتابه نقد الشعرفي ستة أنواع كل منها ذو حدين: جيّد ورديء. ولها سبع صفات، كل صفة موجبة ونقيضتها. والمعاني –عنده– تقع في الأغراض التاليه: المديح، والهجاء، والمراثي، والتشبيه، والوصف والنسيب[2]، ولكل غرض من هذه الأغراض حسنات وعيوب، فالحسنات تتمثل في: صحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والتتميم، والمبالغة، والتكافؤ، والالتفات. والعيوب تتمثل في: الإخلال والزيادة، فإذا تركبت هذه المعاني مع الألفاظ اقتضى أن تتوفر المساواتن والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والمطابقة، والمجانسة[3].

وتابع أو هلال العسكري (395 هـ)الاهتمام بعنصري اللفظ والمعنى، فقال: "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي،وإنما هو في جودة اللفظ وصفاته،وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه،وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقع مع اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه،من نعوته التي تقدمت"[4].

ولم يفت هذا الأمر ابن رشيق (456هـ) فقال: اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهُجنة عليه، كما يعرض لبض الأجسام من العَرَج والشلل والعوَر وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل

---

[1]– ابن طباطبا: عيار الشعر،

[2]– قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص

[3]– قدامة بن جعفر: نقد الشعر،

[4]– أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص73. نقلا عن: محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي،

المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين، إلا أنه لاينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى؛ لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة"[1].

أما عن أيهما آثر، اللفظ أم المعنى، يقول ابن رشيق للناس فيهما آراء ومذاهب: "ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب: منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده، وهم فرق: قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته، على مذهب العرب من غير تصنّع كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذَرَى منبر صلى علينا وسلما

ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنيَ بها، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط: كأبي العتاهية، وعباس بن الأحنف، ومن تابعهما، وهم يرون الغاية قول أبي العتاهية:

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسِّروا الأكفان من عاجلي

ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنني في شُغُل شاغل

ومنهم من ئؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وقبحه وخشونته: كابن الرومي، وأبي الطيب، ومن شاكلهما: هؤلاء المطبوعون، فأما المتصنعون فيرد عليك ذكرهمإن شاء الله تعالى"[2]

---

[1] – ابن رشيق: العمدة، ج1، ص 124

[2] – المصدر نفسه، ص ن.